سياسة الفاطميين في مصر نحو أهل السنة
(٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ / ٩٦٩ ـ ١١٧١م)

محمد أبو الفضل عصمان علي (*)

الحمد الله رب العالمين الذي زكي أهل العلم ورفع شأنهم فقال سبحانه وتعالي : " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " ، والصلاة والسلام علي أشرف الخلق وإمام المرسلين سيدنا محمد صل الله عليه وعلى أله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ،

كان الخلفاء الفاطميون منذ استقر ملكهم بالمغرب يستشرفون لمصر ، ويتطلعون إلى جارتهم الشرقية ؛ فمصر بخصائصها وبثروتها ومواردها , وموقعها الذي تحسد عليه من أقطار الأرض , فقد كانت مصر الحلم الذهبيَّ لملوك الفاطميين ، ومن ثَمَّ أوفدوا حملاتٍ , وجهزوا جيوشًا لغزوها ، ولكنها باءت بالفشل , ولم يدن ذلك الأمل العذب إلّا بيد " المعز " وقيادة جوهر الصقلي القائد الفاطمي .

(*) هذا البحث مستل من رسالة الماجستير الخاصة بالباحثة، وهي بعنوان: [الحركة العلمية في الجامع الأزهر خلال العصر الفاطمي (٣٦١هـ - ٥٦٧ هـ/ ٩٧٢م - ١١٧١م)]، وتحت إشراف: أ.د. ممدوح محمد حسن - كلية الآداب جامعة سوهاج & د. صفاء شكري نظير - كلية الآداب - جامعة سوهاج.

فلما فكر المعز في فتح مصر أسند لجوهر قيادة الجيش الفاتح ، ولما رحل جوهر من مدينة القيروان إلى مصر في يوم السبت ١٤ ربيع الثاني عام ٣٥٨ هـ – فبراير ٩٦٩ م ، خرج الخليفة المعز لتوديعه بنفسه ، وقال : واللّه لو خرج جوهر وحده لفتح مصر وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولينزلن في خرابات ابن طولون ، ويبني مدينة تقهر الدنيا .

وصل جوهر إلى مصر ودخلها ، وأعطى أهلها عهد أمان ، ثم كتب جوهر إلى مولاه المعزّ يبشره بالفتح ، فلما كان يوم الجمعة ١٩ من شعبان سنة ٣٥٨ هـــ / ٩٦٩ م خطبوا للمعز الفاطمي على منابر الديار المصرية وسائر أعمالها ، وأمر جوهر المؤذنين بالجوامع أن يؤذنوا بحي على خير العمل ثم بدأ في تنفيذ تعليمات الخليفة الفاطمي له بأن يؤسس في مصر مدينة تكون بالنسبة للفسطاط كالمنصورية بالنسبة للقيروان في إفريقية بقصد أن تكون مدينة ملكية وعاصمة للدولة العالية الشاملة التي حلم بها الفاطميون لتضم جميع الأراضي الإسلامية .

فلم يكن الفتح الفاطمي لمصر يعني قيام حكومة مكان أخري ، بل كان بمثابة تحول ديني وثقافي واجتماعي بعيد المدي ، صحبه تحول ظاهر في نظام الحكم خلق موقفا جديدا تماما ، فلأول مرة تحكم مصر بدولة لا تدين حتي بالولاء الإسمي للخلافة الإسلامية السنية في بغداد ؛ فمع وصول الفاطميين إلي مصر تزايد دورها في العالم الإسلامي وتحول من دولة تابعة للخلافة العباسية السنية إلي خلافة فاطمية شيعية بشكل أساسي ، وشرع جوهر في بناء القاهرة وأُنجزت الأعمال الرئيسية في بناء القاهرة في السنتين التاليتين للفتح ، قبل

هجوم القرامطة علي مصر في سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م ، ووضع أساس " جامع القاهرة " الذي عرف فيما بعد بـ "الجامع الأزهر" وذلك تأكيدًا للانتصار الديني المذهبي الذي أحرزته الدولة الفاطمية ، ولكي يكون هذا المسجد الجامع مركزًا لنشر الدعوة الفاطمية .

سياسة الفاطميين في مصر نحو أهل السنة :

فقد كان أهل السنة يُكَوِّنون السواد الأعظم من المصريين المسلمين في مستهل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حيث شرع الفاطميون يوجهون حملاتهم إلي مصر وقد استطاع دعاتهم نشر المذهب الفاطمي بين عدد قليل من المصريين كانوا خير عون لهم علي فتح مصر فدخل جوهر قائد الخليفة المعز لدين الله الإسكندرية ٣٥٨هـ / ٩٦٩ م دون مقاومة وكتب أمانا أعلنه للمصريين[١] .

---

(١) ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ / ١٢٨٣م) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس ، طبعة دار صادر – بيروت ، ج ١ ، ص ٣٧٧ : ٣٨٠ ؛ المقريزي : أحمد بن علي بن عبد القادر ، أبو العباس الحسيني العبيدي ، تقي الدين المقريزي (المتوفى : ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) ، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق : الجزء ١: حققه : د/ جمال الدين الشيال ، الجزء ٢، ٣: حققه د / محمد حلمي محمد أحمد ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي ، الطبعة الأولى . ، ج١ ، ص ١٠٣ : ١١٩ ؛ ابن تغري: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي ، أبو

ولم يعمل الفاطميون بكتاب الأمان الذي التزم فيه جوهر بإطلاق الحرية للمصريين في المعتقدات الدينية بل تركز الاهتمام في تحويل المصريين إلي المذهب الشيعي واتبعت الخلافة الفاطمية لذلك عدة وسائل منها :

١ – إسناد المناصب العليا وخاصة الفقهاء إلي الشيعيين .

٢ – اتخاذ المساجد الكبيرة مراكز الدعاية الفاطمية وهي وقتذاك : مسجد عمرو بن العاص ومسجد أحمد بن طولون والجامع الأزهر .

٣ – اهتمامهم بتعيين أحد كبار المتفقهين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم وكان يعرف بداعي الدعاة[١] .

٤ ـــــــ أمعن الفاطميون في اظهار شعائرهم المخالفة لشعائر السنيين كالأذان بحي علي خير العمل[١] ، والاحتفال باليوم العاشر من المحرم وهو اليوم

المحاسن ، جمال الدين (المتوفى : ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دار الكتب ، مصر ، سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م ، ج ٤ ، ص ٣١ ؛ خضر أحمد عطاالله ، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي ، طبعة دار الفكر العربي ، الطبعة الأولي ، ص ٧٤ .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٣٠ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٨ه ، ج٤ ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ ؛ مراد خليفة المختار كورة : دور علماء أهل السنة والجماعة في المحافظة علي المذهب السني في مصر خلال العصر الفاطمي في الفترة من (٣٥٨ – ٥٦٧هـ / ٩٦٩ – ١١٧١م) ، الناشر جامعة سرت – مركز البحوث والاستشارات ، مجلة ٨ ، عدد ٢، ديسمبر سنة ٢٠١٨م ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

الذي قتل فيه الحسين بكربلاء[٢] ، وعيد الغدير (وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة) المعروف بغدير خم[٣] .

---

(١) ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) ، الكامل في التاريخ ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، طبعة دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ج ٧ ، ص ٢٨٠ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج ١ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ ؛ ابن تغري : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

(٢) يوم عاشوراء : كانوا يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الأسواق، ويعمل فيه السماط العظيم المسمى سماط الحزن . (ابن الطوير : أبو محمد المرتضي عبد السلام بن الحسن القيسراني (المتوفي : ٦١٧هـ / ١٢٢٠م) ، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين ، تحقيق : أيمن فؤاد سيد ، طبعة دار النشر فرانتس شتايز شتوتغارت سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ ؛ رمضان الأحمر : الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية ، طبعة شركة القدس للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولي سنة ١٤٣٢هـ / ٢٠١٢م ، ص ٢٨٨) .

(٣) غدير خم : موضع علي ثلاثة أميال من الجحفة ، بين مكة والمدينة به غدير وحوله شجر كثير . (ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ /١٢٢٩م) ، معجم البلدان ، طبعة دار صادر ـــــ بيروت ، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٥ م ، ج ٤ ، ص ١٨٨ ؛ ابن ميسر : تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب (المتوفي : ٦٧٧هـ / ١٢٧٩م) ، المنتقي من أخبار مصر (انتقاه تقي الدين أحمد بن علي المقريزي) ، تحقيق : أيمن فؤاد سيد ، طبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ـــــ القاهرة ، ص ١٦٢ ؛ ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ/ = = ١٣٧٣م) ، البداية والنهاية ، تحقيق : علي شيري ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ج ٥

أثار احياء الشعائر الشيعية في مصر استياء المصريين السُّنيين لما كان يقترن بها في كثير من الأحيان من اعتداءات الشيعيين والمغاربة عليهم فقد حدث عند الاحتفال بعيد غدير خم ١٨ ذي الحجة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م أن قام المغاربة بإثارة الشغب والاضطرابات فخرج جوهر بنفسه ليحول دون تماديهم في الاعتداء علي أموال الأهالي كذلك أصاب المصريين السنيين كثير من الضرر والأذى بسبب إرغام الشيعيين لهم علي مشاركتهم في إظهار شعائرهم(١) .

رأي السنيون المصريون إزاء اهتمام الشيعة بإظهار شعائرهم أن يتخذوا مناسبة دينية يحتفلون بها مضاهاة لعيد غدير خم عند الشيعة ونكاية لهم احتفلوا في سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤ م باليوم الذي دخل فيه رسول الله صلي الله عليه وسلم غار ثور هو وأبو بكر الصديق وقالوا أنه يوافق ٢٦ من ذي الحجة

، ص ٢٢٧ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٤٤١ ؛ عبدالمنعم عبد الحميد سلطان : الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي دراسة تاريخية وثائقية ، طبعة دار الثقافة العلمية سنة ١٩٩٩م ، ص١٥٣ ؛ مني حسن : دكتورة مني حسن حدود ، الاحتفالات والأعياد في مصر خلال العصر الفاطمي (٣٥٨ – ٥٦٧هـ / ٩٦٩ – ١١٧١م) ، مجلة كلية الآداب – جامعة الزاوية ، العدد التاسع والعشرون ، الجزء الأول ، يونيو سنة ٢٠٢٠م ، ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ ؛ أسماء صنديد : الحياة الاجتماعية في كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي (ت : ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ـــ جامعة كربلاء ، سنة ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

وبالغوا في هذا اليوم في إظهار الزينات ونصب القباب وإيقاد النيران ورأت الحكومة الفاطمية في عهد المعز ألا تمنع أهل السنة في مصر من احياء هذا العيد حتي لا تثير غضبهم(١).

ولكن لم ينشأ التوتر بين المصريين والمغاربة والشيعيين عن احياء الشعائر الدينية وحدها بل أدي انحياز الفاطميين إلي المغاربة والاعتماد عليهم في إدارة شئون دولتهم إلي استغلال نفوذهم في إلحاق الأذى بالمصريين فقاموا بنهب أملاكهم واغتصبوا الدور وأجلوا السكان عنها مما حمل المصريين علي رفع شكاياتهم إلي المعز فأصر أوامره إلي المغاربة بإخلاء هذه الدور والانتقال إلي نواحي عين شمس(٢) .

ولما ألت الخلافة إلي العزيز سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م(٣) عُنِيَ كأبيه المعز بنشر المذهب الشيعي وحتم علي القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب كما

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الدولة الفاطمية ، طبعة دار الفكر العربي ـــــــ القاهرة سنة ١٩٩٥ م ، ص ٧٧ .

(٢) ابن ميسر : المنتقي من أخبار مصر ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٣) العزيز هو أبو المنصور نزار ، الملقب العزيز بالله ، ابن المعز لدين الله أبي تميم معد ابن المنصور بنصر الله أبي الطاهر إسماعيل ابن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد ابن المهدي أبى محمد عبيد الله العبيدي الفاطمي المغربي ثمّ المصري ، ثاني خلفاء مصر من بنى عبيد ، والخامس من المهدىّ إليه ممّن ولى من آبائه الخلافة بالمغرب ، ولد بالمهدية يوم الخميس الرابع عشر من المحرم سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ، وولى العهد بمصر وبويع لسبع بقين من ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة ، أقام في الخلافة إحدى وعشرين سنة وخمسة

قصر المناصب الهامة علي الشيعة وأصبح لزاما علي الموظفين السنيين الذين تقلدوا بعض المناصب الصغيرة أن يسيروا طبقا لأحكام المذهب الإسماعيلي ، وإذا ما ثبت علي أحدهم التقصير في مراعاتها عُزل من وظيفته ، وكان ذلك مما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين إلي اعتناق مبادئ المذهب الفاطمي(١).

وقد تميزت حكومة العزيز بالله الفاطمي بأنها حكومة رشيدة عادلة منظمة بل كانت من أفضل حكومات الخلفاء الفاطميين ، وإن كان أبوه المعز لدين الله قد وضع أسس وقواعد السياسة والإدارة إلا أنه لم يحكم في مصر سوى عامين ولذا فقد أكمل العزيز بالله النظم الحكومية وتبلورت في عهده حتي ظهرت في صورتها الكاملة الناضجة ، حيث حدد الخليفة المعز واجبات الخليفة بحيث تدور كلها حول إصلاح الرعية وحمايتهم من أعدائهم فقال : " للناس شغل بدنياهم وما يتلذذون به منها وشغلنا إقامة دورهم وإصلاح أحوالهم والنظر فيما يعود عليهم ويحمي حماهم ويدفع عن بيضتهم ويحصن دماءهم ويحصن حريمهم وأموالهم ويكف أيدي المتوالين بذلك نقطع ليلنا ونهارنا والله المستعان

أشهر ونصفا ، ومات وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما في الثامن والعشرين من رجب سنة ست وثمانين وثلاثمائة بمدينة بلبيس ، وحمل إلى القاهرة . (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٧ ، ص ٤٧٥ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٣٧١ : ٣٧٦ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج١، ص ٢٣٦ ؛ ابن تغري : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١١٢) .

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٧٨ .

علي ما قلدناه من أمورهم وافتراضه علينا من القيام بأسبابهم ونرغب إليه في إصلاحهم وهدايتهم إلي ما فيه حظهم ونجاتهم في دنياهم وأخراهم"[١] .

وسمحوا لأهل السنة بإظهار شعائرهم علي اختلاف مذاهبهم . ولذا أصبحت تعاليم مذاهب الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل تدرس في مصر طوال عهد الخليفتين المعز والعزيز بل كان الخليفتان يراعيان مذهب الإمام مالك وكان من يسألهما الحكم به يجيبانه إلي طلبه . أما مذهب الإمام أبي حنيفة فلم يلق تأييدا من الفاطميين لأنه مذهب أعدائهم العباسيين فظهر في عصر الخليفة العزيز بالله بعض علماء مذاهب أهل السنة فكانوا يلقون دروسهم علي جمهور الناس في جامع عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط[٢] .

ولما قبض الحاكم بأمر الله علي زمام الأمور في مصر بعد تخلصه من وصية برجوان ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م[٣] ،عمد إلي إصدار كثير من الأوامر

---

(١) القاضي النعمان : أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي (المتوفي : ٣٦٣هـ / ٩٧٤م) ، المجالس والمسايرات ، تحقيق : الحبيب الفقي ـــ إبراهيم شبوح ـــ محمد اليعلاوي ، طبعة دار المنتظر، بيروت ـــ لبنان ، الطبعة الأولي سنة ١٩٩٦ م ، ج ٤ ، ص ١٢٠ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٧ ، ص ٣٣٩ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ؛ علي حسني الخربطلي : العزيز بالله الفاطمي ، طبعة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ص ٦٩ .

(٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ : ٣٨١ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج ٢ ، ص ١١٩ ؛ علي حسني الخربطلي : العزيز بالله الفاطمي ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٣٧٥ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج ٢ ، ص ٢٥ : ٢٧ ؛ محمد جمال الدين سرور : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٨٥ .

والقوانين المبنية علي التعصب الشديد للمذهب الفاطمي ؛ فأمر في ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م بنقش سب الصحابة علي جدران المساجد وفي الأسواق والشوارع والدروب[١] ؛ واشتد في معاملة أهل السنة فقد قضي في ٣٩١هـ / ١٠٠١م علي رجل من الشام لاتهامه بعدم الاعتراف بفضل علي وحبس قاضي القضاة لعدم اعترافه بإمامة علي وبعث أربعة من الفقهاء للتحقيق معه وحمله علي الاعتراف بتلك الإمامة ، ولمَّا لم يفلحوا في إقناعه رفعوا أمره للحاكم فأمر بقتله[٢] ولكن في ٣٩٦هـ / ١٠٠٦م ثار أبو ركوه الذي ينتسب إلي الأيوبيين في الأندلس وهجم علي مصر بجيش من المغاربة[٣] ولكي يصلح الحاكم الأمر

---

(١) يحيى بن سعيد : يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي (المتوفى : ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م) ، تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخاء ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، طبعة جروس برس ، طرابلس – لبنان ، سنة ١٩٩٠م ، ص ٢٥٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٢٩٣ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج ٢ ، ص ٥٤ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ، ص ٧٢ ، ٧٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ؛ محمد عبد الله عنان ، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، طبعة مكتبة الخانجي بالقاهرة ـــــــ دار الرفاعي بالرياض ، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م ، ص ١٤٦ .

(٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ، ص ١٦٤ .

(٣) ابن القلانسي : حمزة بن أسد بن علي بن محمد ، أبو يعلى التميمي ، المعروف بابن القلانسي (المتوفى : ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) ، تاريخ دمشق ، تحقيق : د سهيل زكار ، طبعة دار حسان للطباعة والنشر ، لصاحبها عبد الهادي حرصوني – دمشق ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ١٠٤ : ١٠٦ ؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج ٧ ، ص ٥٤٩ : ٥٥٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٣٨٧ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفاء ،

بينه وبين رعاياه السنيين خفف من تشدده في مراعاة المذهب الفاطمي وعدل عن سياسة اضطهاد أهل السنة رائده في ذلك أنه لا يسير علي سياسة واحدة إلي النهاية إزاء طائفة بعينها وأبطل كثيرا من الأعمال التي قام بها ضد السنيين مثل لعن الخلفاء الأول وغيرهم من الصحابة وبالغ في مصالحة السنيين حتي أمر بمحو السباب الذي نقش بلعنهم ومعاقبة كل من أقدم علي سبهم ولم يكتف بذلك بل أنشأ في نفس السنة ٣٩٦هـ / ١٠٠٦م مدرسة لتعليم المذهب الشيعي والمذهب السني في أول الأمر وأهدى هذه المدرسة كثيرًا من الكتب النفيسة وكانت آثار هذه السياسة التي سار عليها الحاكم أن ساءت سمعته عند الشيعيين الذين وجدوا أنفسهم في بلد يسير في اتجاه عادات المذهب السني(١) .

كذلك أصدر الحاكم مرسوما في رمضان سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م وفق فيه بين السنيين والشيعيين وأطلق لكل فريق منهم الحرية في أداء شعائره الدينية وذلك علي أثر ما حدث بينهم من خلاف على فهم بعض الأحكام وتطبيقها ؛ فأجاز في هذا المرسوم للشيعيين صوم رمضان دون أن يتقيدوا برؤية الهلال ، وسمح للسنيين بصوم شهر رمضان إذا ثبت لديهم رؤية الهلال ، كما أباح

ج ٢ ، ص٦٠ : ٦٦ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ، ص٧٣ ؛ ابن تغري : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢١٢ ، ٢١٥ : ٢١٧ .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٢٩٣ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج٤ ، ص١٦٤ ؛ المقريزي: اتعاظ الحنفاء ، ج٢ ، ص ٦٩ ؛ محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، ص ١٤٦ ؛ محمد جمال الدين سرور : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٧٨ .

للشيعيين أن يكبروا في الصلاة على الميت خمس مرات ؛ أما السنيون فأجاز لهم أن يكبروا في صلاة الجنازة أربع تكبيرات وفضلا عن ذلك فإن الحاكم بأمر الله أطلق الحرية للمؤذنين في ذكر عبارة حي علي خير العمل في الأذان ، ونهي عن سب الصحابة(١) .

وظلت سياسة اللين التي سار عليها الحاكم إزاء ثلاث سنوات غير أنها ما لبثت أن تبدلت علي حين غفلة ؛ ففي سنة ٤٠١هـ / ١٠١١م أمر بإقامة الأذان بحي علي خير العمل ، كما أبطل صلاة الضحى وصلاة التراويح(٢) ، ثم اتجهت السياسة الفاطمية زمن الخليفتين الظاهر والمستنصر إلي عدم إثارة السنيين فتمتعوا بمطلق الحرية في أداء شعائرهم ، كما أهملت بعض المظاهر الشيعية، فصار المؤذنون لا يحرصون علي ذكر عبارة حي علي خير العمل في الأذان حتي تقلد بدر الجمالي الوزارة في أواخر عهد المستنصر ـــ وكان مغاليًا في مذهب الشيعة ـــ فأظهر روح العداء والكراهة إزاء أهل السنة سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٦م وأمر بإضافة حي علي خير العمل إلي الأذان ، كذلك أعاد

(١) يحيى بن سعيد : تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخاء ، ص ٢٧٨ ؛ ابن خلدون : ديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج ٢ ، ص ٧٨ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ، ص ١٦٤ ؛ محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، ص ١٤٧ .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

بدر الجمالي نقش عبارات تتضمن لعن الصحابة علي الجدران ، وأصدر أوامره بأن يكون التكبير علي الميت خمسا فقط طبقا للمذهب الشيعي[١] .

وعلي الرغم من أن الخلافة الفاطمية حرصت علي نشر مذهبها الشيعي بين أهالي البلاد التي ضمت إلي حوزتها سعيا وراء توطيد سلطتها فإنها لم تنجح في أداء رسالتها الشيعية في مصر . فظل المذهب السني محتفظا بقوته رغم تحول بعض المصريين إلي المذهب الفاطمي خوفا من تطبيق القوانين الجائرة التي فرضها الفاطميون علي مخالفيهم في المذهب ويرجع السبب في ذلك إلي أن الفاطميين رأوا حين دخولهم مصر واستقرارهم بها أن يتركوا الفسطاط حاضرة المصريين السنيين ويتخذوا لهم حاضرة جديدة تكون مقرا لأنصارهم ودعاة مذهبهم ، كما أنشأوا لهم مسجدًا خاصا ، وأجازوا لأهل السنة في مصر إظهار شعائرهم علي اختلاف مذاهبهم ؛ فصارت تعاليم مذاهب الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل تدرس في دولتهم ، بل إنهم صاروا يراعون مذهب الإمام مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه . أما مذهب الإمام أبي حنيفة ، فلم يلق تأييدا من الفاطميين لأنه مذهب العباسيين . وظهر في العصر

(١) ابن تغري : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٢٠ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ، ومصر ، وسورية ، وبلاد العرب ، طبعة مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨م ، ص٢٢٥ .

الفاطمي بمصر بعض علماء مذاهب أهل السنة ، وكانوا يلقون دروسهم علي جمهور المستمعين بجامع عمرو بن العاص[١] .

كذلك من بين الأسباب التي جعلت أهل السنة في مصر يحتفظون بمذاهبهم وتقاليدهم تشريعات الوراثة التي أدخلها الفاطميون، إذ رأوا فيها ما يتنافى مع ما نص عليه القرآن وما أثر عن السنة، فيجيز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما تركه أبوها إذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود ذوي العصبية ، وهذا يخالف مذهب السنة الذي يقضي بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة[٢] .

وكان الفاطميون منذ أوائل حكمهم مصر إلي آخر عهد الظاهر يحكمون بأنفسهم ولم يكن الوزراء قد بلغوا من القوة والاستبداد بالأمر هذا المبلغ الذي نراه في عهد المستنصر ومن بعده من خلفاء الفاطميين[٣] .

ففي العصر الفاطمي الأول كان اضطهاد أهل السنة أمرا طبيعيا لتثبيت أركان الدولة وحمايتها[١] من أعدائها أمويي الأندلس في المغرب ومن العباسيين في

---

(١) المقدسي : أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري (المتوفي : ٣٨٠هـ / ٩٩١م) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة دار صادر – بيروت ومكتبة مدبولي القاهرة الطبعة الثالثة ١٤١١ هـ/١٩٩١م ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥.

(٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ، ص ١٦٢ ؛ محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ، ص ٣٤٥ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ، ومصر ، وسورية ، وبلاد العرب ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

الشرق[٢] فكانت السياسة تقضي علي الفاطميين أن يكونوا علي حذر من كل مخالف لعقيدتهم وأن يشحذوا[٣] السيف لكل من تحدثه نفسه بالخروج علي سلطانهم ولا سيما أن العباسيين وأمويي الأندلس يسيئون إلي الفاطميين في نسبهم وفي عقائدهم ، وحاربوا الفاطميين بالسيف طورا وبالدعاية طورا آخر فكتبوا المحاضر في سب الفاطميين وطلبوا من العلماء والكُتَّاب الطعن في عقائد الفاطميين مثل ما نراه في كتب الغزالي وغيره واضطر الفاطميون إلي أن يكونوا علي يقظة من أمرهم إذا جد الجد وأن يعتبروا كل من لم يعتنق عقيدتهم عدوا لهم ؛ ولهذا نستطيع أن نفسر تطورات الحاكم بأمر الله في سياسته فكان حينًا يقرب أهل السنة ويغدق عليهم أمواله، وطورا يشتت شملهم ويمعن فيهم بالقتل والسجن وهو في كلا الأمرين مضطر إلي اتخاذ هذه السياسة أو تلك حسب مقتضي الحال مع خصومه وأعدائه[٤] .

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفاء ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

(٢) ابن تغري : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ .

(٣) يشحذوا : أي يحدوا . (زين الدين الرازي : زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى : ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م) ، مختار الصحاح ، تحقيق : يوسف الشيخ محمد ، الناشر : المكتبة العصرية – الدار النموذجية ، بيروت – صيدا ، الطبعة الخامسة ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، ص ١٦٢) .

(٤) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ، ص ١٦٣ : ١٦٦ ؛ خضر : الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي ، ص ٧٩ .

فالحاكم شخصية غامضة اتهمه البعض بالجنون ووصفه البعض الآخر بالعبقرية حيث كان سياسيا حازما في سياسته ، يعفو في وقت العفو ويقتل حين يشتد به الأمر وهكذا كان الحال في سياسة الفاطميين نحو أهل السنة[١] .

(١) خضر : المرجع السابق ، ص ٧٩ ؛ ممدوح محمد حسن : الدولة الفاطمية في مصر ، طبعة دار الإيمان للطباعة بسوهاج ـــ مصر سنة ٢٠١٨ ، ص ٣٧ .

الخاتمة :

الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صل الله عليه وعلى أله وأصحابه أجمعين .

وبعد ،

فمن خلال هذه الدراسة يتضح لنا أنه يوجد خلاف كبير وجوهري بين أهل السنة والشيعة في مصر على المستويين العقائدي والسياسي ، وهذا ما جعل الفاطميين يبذلون كل ما يملكون من طاقات، وإمكانيات مادية وبشرية لنشر مذهبهم الشيعي في مصر ، فسيطروا على المساجد وفي مقدمتها الجامع العتيق وأعلنوا منه قيام دولتهم الشيعية وأجلسوا فيه علماءهم وفقهاءهم وجعلوا منه منبرًا لبث الفكر الشيعي ، كما أنهم شيدوا من أجل ذلك المساجد الخاصة بهم كالجامع الأزهر وجعلوا منه مركزًا لنشر المذهب الشيعي ، وأمروا بإبطال الكثير من السنن التي يقوم بها المجتمع المصري السني ، حيث غيروا في الآذان وأمروا بإضافة حي على خير العمل وأرغموا المؤذنين بها، وكذلك أظهروا احتفالاتهم الخاصة بهم وبالغوا في ذلك ؛ مما جعل أصحاب المذاهب السنية يبذلون أرواحهم في سبيل الله رغم التنكيل والبطش بهم ، فجلس علماء أهل السنة في المساجد وألقوا الدروس والخطب والمواعظ التي تبين صحيح الدين ومعتقد أهل السنة ، وألفوا الكتب في جميع المجالات للرد على الشيعة وفقهائهم .